تمثّلات صورة الصّحراء العربيّة في ضوء ثنائيّة الآنا والأخر
رحلات لودفيكو فارتيما أنموذجا

Representations of the Image of the Arabian Desert in Light of the Self-Other Dichotomy: The Travels of Lodovico di Varthema as a Model."

أ. مفيدة ميزان♥
أستاذ محاضر ب

المُعرّف الرّقميّ للمقال:DOI 2025 10.33705/0114-027-004-018
تاريخ الاستلام:18-04-2025-تاريخ القبـول:13-09-2025-تاريخ النّشر: 15-12-2025

ملخّص: يهدف هذا المقال إلى تسليط الضّوء على أهمّيّة أدب الرّحلة في تجسيد صورة الآخر انطلاقا من كون هذه النّصوص الرّحليّة تعدّ مصدرًا للمشاهدات والأخبار التي يرصدها الرّحالة عن الشّعوب. وتكمن أهمّيتها في قدرتها على تشكيل صور متعددة عن الآخر مستندة إلى مرجعيات متنوّعة سياسيّة ودينيّة وعرقيّة وايديولوجيّة، وهذا ما بدا واضحًا في الرّحلات الأوروبيّة إلى الشّرق، لهذا حاولت من خلال هذا المقال استجلاء صورة العرب في نظر الرّحالة الايطالي فارتيما، والكشف عن أبعادها الاجتماعيّة والدّينيّة والاقتصاديّة من خلال نقل الكثير من مشاهد الصّحراء العربيّة، فتنوّعت الصّورة بين ما هو إيجابي انطلاقا من ارتباط الرّحلات بالجانب السّياحي الاستكشافي، أمّا الصّور السّلبيّة فقد ارتبطت بالجوانب الاستعماريّة.

♥جامعة عباس لغرور خنشلة، الجزائر، البريد الإلكتروني: mizane.moufida@univ-khenchela.dz (المؤلّف المرسل).

كلمات مفتاحيّة: صورة الصّحراء؛ فارتيما؛ الآنا؛ الآخر؛ الصّورولوجيا.

Abstract: This article aims to shed light on the importance of travel literature in shaping the image of the Other, based on the premise that such travel narratives serve as primary sources for the observations and accounts recorded by travelers about different peoples. Its significance lies in the ability of these texts to construct diverse representations of the Other, drawing on various political, religious, ethnic, and ideological backgrounds. This was particularly evident in European journeys to the East. Therefore, through this article, I seek to explore the image of Arabs as seen by the Italian traveler Varthema and to reveal its social, religious, and economic dimensions by conveying many scenes from the Arabian desert. The representations varied between positive images—mainly linked to the exploratory and touristic aspects of travel—and negative ones, which were often associated with colonial perspectives

Keywords: Desert Imagery; Varthema; Self; Other; Imagology.

1. مقدّمة: تعدّ الرّحلة الأدبيّة أحد أهم الأجناس الفنّيّة والمصادر المعتمدة في الكشف عن حضارة الشّرق التي ذاع صيتها بأساطيرها وأطلالها التي أثارت فضول حالة الغرب بزيارة الشّرق وتأليف كتب عنه، فالرّحلة تمثل برهانا ماديا على قيام الاتصال المباشر، وتؤكد على ما يقدمه هذا اللون من الأدب من حمولة ثقافيّة، ويرسم لنا درجة استعداد البيئة التي عاش فيها الرّحالة للتطور على المدى القريب أو البعيد تبعا لصلاتها مع غيرها أو انفرادها عنهم "**فالرّحلة فن أدبي ذو طابع قصصي كما أنّها ضرب من السّيرة الذّاتيّة في مواجهة ظروف وأوضاع في كشف الأعلام والأقطار ووصفها، والحكم عليها وعلى**

المجتمع، فهو وصف في النّهايّة لكل ما انطبع من ذلك سواء في ذهن الرّحالة عبر مسار رحلته وأسلوب القص والحقائق العلميّة والتّاريخيّة والجغرافيّة والنّفسيّة"،[1] وهذا يعني أنّ الرّحلة هي من الآداب التي فسحت المجال للتعرف على ثقافات متعددة والتّعرف على الآخر من خلال تصوير حياته الاجتماعيّة وعاداته وتقاليده وأتيحت الفرصة للغرب لكي يتعرف على السّحر الشّرقي الذي أسر الكثير من الغربيين والعلماء والمفكرين" **فالرّحلة تطلعنا على سيرة أصحابها وعلى حقيقتهم وتكشف مواهبهم ودوافعهم للقيام بتلك الرّحلات والأثر الذي خلفوه للأجيال**"،[2] وفي ظل العلاقات بين الشّرق والغرب وضع كل منهما خطابا عن الآخر؛ فالرّحالة الغربي خلق لنفسه شرقا وشكله وفقا لما يتمشّى مع رؤيته العنصريّة، أمّا الرّحالة الشّرقي خلق غربًا انطلاقا ممّا هو موجود، لأنّ الغرب يهدف من وراء ذلك إلى الهيمنة والسّيطرة والاستيطان والسّلب والنّهب، بينما الشّرق هدفه مغاير للغرب تماما هو ينادي إلى السّلم والحوار. وهذا يدفعنا إلى طرح مجموعة من الأسئلة أهمّها:

1-كيف شكلت صورة الآخر العربي في النّص الرّحلي عند فارتيما؟

2-ما هي مرجعيات تشكيل صورة الآخر العربي في رحلات فارتيما؟

2. العلاقة بين أدب الرّحلة وأدب الصّورة: شهد علم دراسة الصّورة الأدبيّة وهو أحد فروع الأدب المقارن، اهتمامًا متزايدًا في الآونة الأخيرة، حيث يركز هذا العلم على تحليل التّمثيلات الأدبيّة للصور النّمطيّة والرّموز التي يقدّمها النّص الأدبي، ويهدف إلى فهم البنيّة الفنيّة والمعاني الثّقافيّة التي تحملها هذه الصّور داخل العمل الأدبي يطلق عليها **(Guy michaud)** علم الصّورة وينسبها للأدب المقارن، أمّا **سيمون جون** يوضح علاقة صور الشّعوب بالأدب المقارن "إنّ التّأثير الذي سنتحدث عنه مختلف لأنّه ليس من نفس النّوع، فلم يعد ثمة عمل أدبي يحدث تأثيرًا بل شعب بأكمله، البلد كلّه يحدث التّأثير وأدباء شعب آخر يتلقون الصّورة"،[3] فالبحث عن الآخر، والكشف عن صورته أو

محاولة التّعرف إلى ثقافته وفكره هي فكرة تمس الإنسان من الدّاخل، وأدب الرّحلة يعد من الآثار الأدبيّة الغنيّة بمادتها التي أسهمت في الوصول إلى مدارك الآخر واستقراء مدى القدرة على التّواصل بين الذّات الباحثة والآخر القابعة في مضان الغموض، وقد شكلت الرّحلات البوابة التي انطلقت منها كثير من الرّؤى والأحكام والتّصورات عن الآخر، فالغايّة ليست وصف الآخر والوقوف على معالم حياته بل قراءة الآخر في مرآة الآنا، ولأنّ الآخر هو المرآة التي تعكس صورة الأنا "ويتأثر سلوك الفرد تجاه الآخر بالانطباع الذي يتكون عنه استنادا إلى طريقة الإدراك وكيفيّة التّعامل مع المكون الثّقافي والاجتماعي لهذا الآخر، حيث ينبثق من هذا الإدراك والتّعامل تفاعل متبادل بين الأنا الفرديّة أو الجماعيّة والآخر، وتتفاوت درجة ايجابيّة هذا التّفاعل وسلبيته بتباين هذا الإدراك"،[4] فالعلاقة بين الأنا والآخر هي علاقة تبادل الأدوار خلال فترات زمنيّة تارة غالبا وتارة مغلوبا.

فأدب الرّحلة يلعب دورا مهما في رسم ملامح صورة الآخر، وإن كانت تلك الصّورة غير تامة وغير دقيقة أحيانا، وبما أنّ الاعتراف بشرعيّة الاختلاف بين البشر هو أحد روافد تشريع العلاقة مع الآخر على قاعدة التّواصل والحوار والتّعارف، نستطيع القول أنّ في الوجود الإنساني آخر دينيا ومذهبيًا وقوميًا وعرقيًا، وجغرافيًا، واجتماعيًا، وثقافيًا وسياسيًا، فتتعدّد دوائر الآخر وتتنوّع مستوياتها بتعدد دوائر الأنا ومستوياتها" فالرّحلات إذن تسهم في تشكيل صورة الأمة في أدب أمّة أخرى، وهي تكشف بذلك عن طبيعة العلاقة التي تسود بين الأمم والشّعوب، فلا شك أنّ حالة العداء تخلق للآخر صورة سلبيّة تسعى الأمم لتبريرها وجمع مفرداتها من عناصر شتى وفي هذه الحالة يجري اختزال العدو إلى صورة نمطيّة يجري التّعبير عنها بكثافة ودقّة، أمّا حالة الإعجاب فتثير صورة إيجابيّة مشرقة" [5]؛ فقد لوحظ أنّ الصّور تقدّمها الآداب الأخرى تشكل

مصدرًا أساسيًا من مصادر سوء التّفاهم بين الأمم والدّول والثّقافات سواء كان هذا ايجابيًّا أم سلبيًّا.

3. التّعريف بالرّحالة لودفيكو فارتيما: قبل الحديث عن طبيعة صورة الصّحراء العربيّة التي تطبع عمل الرّحالة لودفيكو فارثيما (**Lodovico di Varthema**) في رحلاته علينا أن نقف أوّلا عند هذا الرّحالة الايطالي ولد في بولونيا (1470 1517) بدأت رحلته من البندقيّة (فنيسيا) حاليا سنة 1503 متجها من أوروبا إلى الإسكندريّة ومنها إلى القاهرة مرورا بالنّيل وترك مصر متجها إلى بيروت ومنها إلى طرابلس وحلب ودمشق، ومن دمشق يتوجه إلى مكّة المكرّمة، ويرد في موسوعة التّراجم العالميّة في القديم والحديث المطبوعة في پاريس سنة 1827 نص فرنسي يعرفه بأنّه رحالة ايطالي قام برحلته في القرن العاشر الهجري السّادس عشر ميلادي، وإنّ هذه الرّحلة هامّة جدًا للمشتغلين بتاريخ الجغرافيا وللمؤرخين بشكل عام"[6]. سمى نفسه الحاج يونس المصري أمّا في الهند واندونيسيا فإنّه يعرف باسم الحاج يونس العجمي، ويذكر بيتر برنت في كتابه: "بلاد العرب القاصيّة" "أنّ فارتيما يعد بحق أوّل مستشرق يخترق مكّة المكرّمة"[7]، يقول المستشرق بيرسي بادجر "أنّ معظم ما نعرفه عن فارتيما هو ما ذكره فارتيما عن نفسه"[8]،"تعلم هذا الرّحالة اللّغة العربيّة في دمشق، ونظرًا لكون الرّحلة قديمة قبل أن تنشط موجة الرّحلات الإستشراقيّة فيما بعد، وقبل ظهور النّزعة الرّومانسيّة، حيث كانت مرحلة الجهل والخرافات هي السّائدة في البلاد العربيّة، لذلك كان الرّحالة يصف الأشياء الغريبة التي تحدث أمامه، ممّا أوقعه في مشاكل عديدة مع السّلطات والنّاس. ومن جدة غادر بحراً إلى عدن التي وصلها عام 1504م، وقضى فيها مدة قبل أن يبارحها إلى الهند بعد قضاء عشرة أشهر في الجزيرة العربيّة. وبعد مغامرة في بلاد فارس وجزر الهند الشّرقيّة والحبشة وموزمبيق عاد فارتيما إلى روما في الفترة بين عامي 1558م و1559م، حيث أصدر كتابه الذي يعد الوحيد من نوعه المكتوب بلغة

أوروبيّة عن الجزيرة العربيّة آنذاك. فوصف في رحلاته جميعها العادات والتّقاليد والطّقوس الدّينيّة ووصف المدن والأماكن خاصّة أنّه كان يعمل لحساب ملك البرتغال الذي أرسله ليتجسس على العالم الإسلامي متخفيا بلباس المماليك ويشير عبد الرّحمن الشّيخ "أنّ مهمّة فارتيما كانت أكثر تعقيدا، فقد كان مكلفًا بوصف عادات الشّعوب التي يمر بها في طريقه للهند، وفي الهند نفسها كتابة تقارير عن جيوشها خاصّة ما يتعلق بالمدافع، وحصر منتجاتها الزّراعيّة والصّناعيّة، خاصّة ذات القيمة في التّجارة العالميّة وباختصار فإنّ مهمّته كانت التّجسس الشّامل على كل الشّعوب والجماعات التي مر بها خاصّة الإسلاميّة منها"[9].

وتمّ هذا بمساعدة المملوك الفارسي خوجة ذو النّور الذي قدم له خدمات هائلة، وأتاح لفارتيما فرصة التّغلغل في المجتمعات الإسلاميّة وقدمه على أساس أنّه مملوك، ولهذا تشكل رحلة فارتيما الجناح البري لجهود البرتغاليين في اكتشاف الطّرق المؤديّة إلى ثروات الشّرق عامّة والهند خاصّة، وجهودهم كذلك لتطويق العالم الإسلامي استمرارا لما كانوا يسمونه حرب الاسترداد،[10] ولقد تنوّعت المصادر التي اعتمدها الرّحالة فارتيما في تشكيل صورة الآخر، ورصد معالم حياته المختلفة، ومن هذه المصادر المشاهدة والمعايشة والسّماع والنّقل والإخبار.

4-صورة مدينة القاهرة من النّاحيّة العمرانيّة: تشكّل العمران صورة من صور هويّة الآخر، وفي هذا الصّدد ينقل فارتيما بعض مظاهر مدينة دمشق وبيروت وطرابلس وحلب وقد اتسمت صورها بالدّقة حينا والسّطحيّة حينا آخر حيث نجد كثيرًا من التّفاصيل في عرض دقيق للمدن العربيّة وفحصًا للتقاليد وأنماط السّلوك ودراسة للأوضاع التّجاريّة والاجتماعيّة التي لا تخلوا من نوازع سياسيّة واستكشاف لما يحقق مصالح بلاده ومصالح ملك البرتغال خاصّة. فلقد اعتمد فارتيما في رحلته على المشاهدة في توثيق الأخبار والمعلومات ووصفه

للأماكن التي وصل إليها، وقد تعددت مشاهدات فارتيما، وكانت الرّكيزة الأساسيّة التي قامت عليها رحلته، ومن هذه المشاهدات حديثه عن مدينة القاهرة حيث يرى **فارتيما** أنّ التّقارير التي كتبت عن القاهرة بأنّها مدينة كبيرة أدهشته لأنّه وجد العكس. "فمحيط القاهرة يساوي تقريبا محيط روما"، (11) وهذا يعني أنّه قد كانت هناك محاولات تجسّس قبل هذا الرّحالة لنقل كل ما يتعلق بالعالم الإسلامي إلى الغرب وضربه في عقر داره، فالعالم الإسلامي كان دائما عرضة للمخطّطات الاستعماريّة التي لجأت إلى كافة الوسائل من بينها إرسال رحالة بأسماء وهويات مستعارة.

فالقاهرة حسب الرّحالة تضم مساكن أكثر بكثير من روما كما أنّ عدد سكانها كبير والخطأ هو وجود قرى صغيرة خارج أسوار القاهرة ممّا جعل النّاس يضنون أنّها ضمن القاهرة، كما يقر الرّحالة أنّ المماليك هم سادة وحكام للمسلمين، وأنّ مصر يقطنها المسلمون والمماليك، فالرّحالة اعتمد على تقنيّة المفاضلة بتفضيل المماليك وإقصاء الآخر المسلم.

5-صورة بيروت من الجانب المعماري: صور الرّحالة الأماكن التي قصدها أو مر بها في رحلته، وعمد إلى النّمط التّصويري القائم على إيراد التّشبيهات بين الثّقافة الإسلاميّة والمسيحيّة خاصّة على مستوى المعالم الدّينيّة والتّاريخيّة. وكانت الصّورة موجزة لم تتل من التّفصيل حظا وافرا، حيث يعترف الرّحالة أنّه لم يجد ما يصفه في بيروت سوى مبنى قديم كانت تسكنه ابنة الملك فأراد تنين افتراسها فقتله القديس جورج،(12) فالرّحالة أورد هذه الحكايّة المعروفة أيام الحروب الصّليبيّة وهي قصة التّنين والملك وابنته والقديس جورج أو مارجرجس من الأساطير التي بقيت عالقة مع التّقاليد النّصرانيّة في بيروت.

6- صورة طرابلس من الجانب الاقتصادي: أمّا طرابلس حسبه فهي تابعة للقاهرة وتضم بضائع مختلفة وهي سوق لسوريا وتركيا، كما أنّها ممر للبضائع الفارسيّة، ومن طرابلس يتجه فارتيما إلى حلب في رحلة بريّة دامت ثمانيّة أيام ليتجه بعدها إلى دمشق التي استغرقت رحلتها عشرة أيام، وعلى بعد عشرة أميال يجد منطقة أخرى هي مدينة منين وتقع على سفح الجبل ويقطنها المسيح التّابعين للكنيسة اليونانيّة ويصفها " توجد بها كنيستان جميلتان جدا، يقال أنّ هلينا أم قسطنطين هي التي أنشأتهما، وتنمو الفاكهة الممتازة هنا خاصّة العنب، كما توجد بساتين رائعة وينابيع"،[13] فكما كان المكان الدّيني الإسلامي حاضرا في حديث الرّحالة نرى أيضًا المكان المسيحي حاضرا عند فارتيما بأشكال وهيئات متنوّعة بلدا وكنيسة ومزارا فمن هذا الوصف يتضح بأنّ الرّحالة منتصر للمسيحيّة والمسيح حتى وإن أخفى هويته، والمتتبع لرحلته يكتشف ميوله العاطفيّة ومبالغته في وصف كل ما هو غربي مسيحي.

7-صورة جمال دمشق من الجانب العمراني: قدم الرّحالة صورة ممعنة بالخصب والجمال لمدينة دمشق معترفا بأنّه لا يستطيع أن يصف جمال مدينة دمشق فهي تجمع بين العرب والمماليك والمسيحيين اليونانيين. وركز على المعالم الدّينيّة والتّاريخيّة فكان التّركيز قائما على تاريخ المآثر العمرانيّة في دمشق وأشكالها وطريقة بنائها، حيث تتمثل العمارة الدّمشقيّة في المساجد خاصّة ونحوها من (المباني، والقصور والقلاع، والمنازل)، وما يميّز دمشق هي تلك النّافورات المتميزة بفسيفسائها، حيث تشكلت هذه الصّورة انطلاقا من "وجود الغرب ككتلة واحدة يؤدي بالضّرورة إلى تشكيل مفهوم الشّرق ككتلة مضادة أو مقابلة، وعلى الرّغم من تقدم البحث التّاريخي والعرقي الأنثروبولوجي يبقى الشّرق مجرد فضاء يسقطون عليه الرّؤى الرّومنطقيّة ثم الايديولوجيّة للغرب الفاتح المنتصر"،[14] فهذه الصّورة التي تشكلت في النّص الرّحلي وانطبعت في ذهن الرّحالة فارتيما عن دمشق هي الصّورة نفسها الثّابتة في الذّهن الأوروبي

عن الشّرق كونه مصدر السّحر والجمال، أمّا المنازل العربيّة حسب فارتيما فهي قذرة من الخارج لكن تتميّز من الدّاخل بجمالها المعماري من خلال زخرفتها وتنميقها بالمرمر والرّخام.

ويشير الرّحالة أنّ دمشق بها قلعة جميلة وقويّة تم بنائها على يد مملوك فلورنسي على نفقته الخاصّة حيث يبدع فارتيما في وصفها "**إنّ كل زاويّة من زوايا هذه القلعة يتجلى الفن الفلورنسي منحوتا في الرّخام، وتحيط بهذه القلعة خنادق عريضة، ولها برجان وجسران يمكن سحبهما، وتوجد بها مدفعيّة ممتازة وحسب الرّحالة فإنّ السّلطان الكبير دس له السّم ولولا هذا المملوك الفلورنسي لمات السّلطان فكافأه بهذه المدينة التي بنى فيها هذه القلعة، وعند وفاته بكاه النّاس ووقروه باعتباره وليا صالحا**"،[15] وهذا فيه نوع من التّهويل والمبالغة من قبل **فارتيما**، والانتصار لكل ما هو أوروبي ومسيحي.

ويظهر حقد **فارتيما** الدّفين عندما يقر بأنّ المسلمين بشكل عام يعيشون تحت حكم المماليك كما يعيش الحمل في ظل الذّئب. وهذه الصّورة التي نقلها تعبر على أنّ فارتيما جاء إلى الشّرق محملا بإيديولوجيّة غربيّة شعارها التّفوق الحضاري الذي امتلكه الغرب المسيحي على أنّه تفوق نوعي وكمي إذ وضع صورة الغرب المسيحي في مركز والآخر الإسلامي في الأطراف، وألغى كل ما هو خارج عن نمط الثّقافة المسيحيّة.

8-صورة دمشق من الجانب الدّيني: والتي استحضر فيها **فارتيما** الأنا أو الهويّة المسيحيّة للمقارنة بين الأنا المسيحيّة والآخر المسلم، فالمشهد الدّيني في دمشق تمثل في كثرة المساجد، وأحد هذه المساجد تبلغ مساحته كنيسة القديس بطرس في روما، ويحتفظون في هذا المسجد برفات النّبي زكريا، وهذا المسجد له أربعة أبواب رئيسيّة ويضم العديد **من النّافورات، كما يوجد في دمشق ضريح يقال إنّ القديس بولس كان محبوسا به وأعاد المسلمون بناءه مرات**

عديدة لكن مع الصّباح يجدونه مهدما لأنّ الملاك حطمه عندما كان يسحب القديس بولس ليحرره،[16] من خلال هذا الوصف نستنبط أنّ هناك نوعًا من الضّغينة عند هذا الرّحالة الذي يحاول أن يربط الأشياء الجميلة بالمسيحيين وكل ما هو قبيح ومشين بالعالم الإسلامي بطريقة غير مباشرة؛ فالرّحالة **فارتيما** في تصويره للذات وللآخر أعاد تأويل وتشكيل كل الرّموز والمعالم لصالح الوعي التّاريخي الأوروبي من خلال خطاباته الإيديولوجيّة والسّياسيّة والاقتصاديّة وتحويل الثّقافة الغربيّة المسيحيّة إلى نموذج في ذاته ويتحول إلى إبداع والممكن إلى ضرورة.

9-صورة مدينة دمشق من الجانب الاقتصادي: والتي نقلها **فارتيما** بصورة ايجابيّة وذلك عن طريق ذكر أنواع المحاصيل الزّراعيّة الجيدة منها والرّديئة وبأنّ أهل دمشق يعتمدون على التّجارة منهج الحياة وقوام العيش ويشير فارتيما "أنّه من المحال أن نتصور روعة الصّناعات وأناقتها ففي دمشق تجد وفرة هائلة في الغلال واللحوم والمنطقة كلّها زاخرة بالفاكهة التي لم أر لها مثيلاً من قبل خاصّة العنب الطّازج المتوفر في كل المواسم وسأذكر الفاكهة الطّيبة والفاكهة الرّديئة التي تنمو هنا فالرّمان والسّفرجل من الأنواع الطّيبة واللوز والزّيتون ذو الحب الكبير في غايّة الرّوعة، وتنمو هنا الورود الحمراء رائعة الجمال والتي لم يسبق أن رأيت لروعتها مثيلا ويوجد هنا تفاح وخوخ وكمثرى إلاّ أنّ مذاقها سيء جدا ويرجع ذلك أن دمشق تكثر فيها المياه" [17].

10-صورة مدينة دمشق من الجانب الاجتماعي: ينتقل فارتيما في رحلته للحديث عن بعض المظاهر الاجتماعيّة الدّمشقيّة منها:

10-1 -الطّعام والملابس الدّمشقيّة: تناول الرّحالة فارتيما في رحلته وصفا لأزياء الرّجل والمرأة الدّمشقيّة، لأنّ الألبسة لها صلة واسعة بالبيئة والمجتمع الدّمشقي، وحتى شخصيّة الفرد ومكانته، حيث تطرق إلى لباس المسلمين الذين يرتدون عباءات طويلة وواسعة دون أحزمة من الحرير أو

القماش في حين أنّ الغالبيّة ترتدي سراويل صوفيّة وأحذيّة بيضاء، وليهين **فارتيما** المسلمين أكثر فإنّه يشير إلى أنّ المسلم عندما يلتقي بأحد المماليك حتى وإن كان المسلم ذا مكانة مرموقة فإنّه لابد أن ينحني ويظهر الاحترام الفائق للمملوك ويوسع له الطّريق، وإن لم يفعل هذا يضرب بالعصا فالرّحالة من خلال مقارنته نجد تحيزا للمماليك ونظرة دونيّة لكل ما له علاقة بالمسلم الشّرقي وجعله دائما في أدنى المراتب.

كما سلط الرّحالة الضّوء على طريقة تناول المسلمين الطّعام بنوع من التّهكم والسّخريّة بتشبيه حال المسلمين بالبهائم يقول: "**يأكل المسلمون في غالبهم في الطّرقات حيث تباع الملابس، فهم يطبخون طعامهم على مرأى النّاس ويأكلونه وهم جلوس في الطّريق ويوجد خيل بأعداد كبيرة جدا، بالإضافة إلى الجمال والجواميس والأغنام والماعز**"[18] فوصف الرّحالة للمسلمين لم يتحل فيه بالموضوعيّة بل كان متمسكا بالصّورة النّمطيّة التي عهد الغرب تصويرها والتي لا تخرج عن دائرة البربر المتوحشين.

10-2-صورة المرأة الدّمشقيّة: اهتم فارتيما في وصفه للمرأة الدّمشقيّة على المظهر الخارجي وفيها يصف النّساء الدّمشقيات حين يتزوجن **فالنّسوة في دمشق يجئن ويرحن وقد ارتدين أثوابا حريريّة جميلة فوقها عباءات صوفيّة بيضاء رقيقة ولامعة كأنّها حرير، كما أنّهن جميعا يلبسن صنادل بيضاء وأحذيّة جمراء أو أرجوانيّة و يضعن حليا كثيرة حول رؤوسهن ومعاصمهن وفي آذانهن، وعندما تتزوج الواحدة منهن ولا يكون ذلك إلا برغبتهن ومشيئتهن فإنها لا ترغب في البقاء مع زوجها مدة طويلة لذا فهي تذهب للقاضي طالبة الطّلاق وبعد أن يتم لها ما تشاء تتزوج بعلا آخر ويتزوج زوجها السّابق بامرأة أخرى**[19] فالمرأة الدّمشقيّة تبدو من خلال وصف لباسها في صورة الأنثى السّاحرة الجذابة، وهي صورة تعبر عن انتمائها الشّرقي الإسلامي بكل خصوصياته المتفردة.

10-3-صورة المماليك من الجانب العسكري: لم يقف الرّحالة فارتيما في سرد الواقع البشري العربي المشرقي عند المسلمين فقط، بل نراه يتحدث عن المماليك بالاشارة الى واقعهم الثّقافي بما تقتضيه الحقيقة من نقل الصّورة البشريّة لهؤلاء بحكم أنّه منهم، وقد تفاوتت أحكامه ونظرته التي ترى فيهم صورة المملوك المفضل والمميّز على المستوى العسكري والعلمي يقول: "المماليك في أساسهم مسيحيون تركوا المسيحيّة كان السّلطان قد اشتراهم، ومن المؤكّد أنّ وقت هؤلاء المماليك لا يضيع هدرا فهم يتدربون دائما على السّلاح وإمّا على فنّ الكتابة وتحصيل العلم، وذلك بغيّة تحقيق الامتياز في كلا المجالين"[20] كما أنّ هؤلاء المماليك يعتمدون على التّجارة بالدّرجة الأولى يقول: "ويمتلك المسيحيون هنا مخازن ومحلات كثيرة غاصة بالملابس والحرير والسّاتان والمخمل والأواني النّحاسيّة، وكل البضائع المطلوبة ومع هذا لا يلقون معاملة حسنة"،[21] ونظرته هذه ترى في المماليك نظرة المظلوم الذي نهب حقه من طرف المسلمين وتركيز الرّحالة على الجانب التّجاري والعسكري له خلفيات ونوازع استعماريّة من طرف ملك البرتغال.

11-صورة اليهود: أثناء وصول فارتيما إلى الجبل الذي يسكنه اليهود والذي يظهر محيطه مابين عشرة أميال واثني عشر ميلا يقطنه ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف يهودي فكانت رؤيته لليهود مليئة بالكره والحقد الدّفين فهم حسب الرّحالة "**عراة ويبلغ طول الواحد منهم خمسة أشبار أو ستة أشبار وأصواتهم كأصوات النّساء، ويغلب عليهم السّواد، ولا يأكلون إلا لحوم الغنم وهم مختنون ويعترفون بأنّهم يهود وإذا ما وقع أحد المسلمين بين أيديهم سلخوه حيا. وعند سفح هذا الجبل وجدنا بركة تجمع ماؤها في موسم هطول الأمطار، وقد حملنا من مائها، وكان اليهود غير سعداء بفعلنا هذا وراحوا يحومون حول الجبل كالماعز البريّة**"،[22] وهذه الرّؤيّة كانت ناتجة عن نظرة الكره التي تكنها أوروبا لليهود بما فيها ايطاليا التي ترى فيهم عناصر قذرة

مدمرة للاقتصاد الوطني، وفي مذكراته أشار إلى أنّ القافلة تعرضت لهجوم قطاع الطّرق وحاصروها يومين كاملين كما عانت القافلة ويلات الهلاك خلال خمسة عشر يوما من السّفر المتواصل في الصّحراء لا ماء فيها ولا طير وخلال الرّحلة مات الكثير من أفراد القافلة بسبب الظّمأ والجوع والأمراض وأخيرًا وصلت القافلة إلى مشارف المدينة المدينة المنورة، وتوقفت عند بئر خارج المدينة، وفيها اغتسل كل فرد قبل الدّخول للمدينة، دخل فارتيما لأوّل مرة المدينة المنورة كأوّل مسيحي ومكث فيها أربعة أيام.

12-صورة المدينة المنورة من الجانب الدّيني: ركزت الرّحلة على العلاقة المتبادلة بين المكان والإنسان، وتناولت التّأثير الدّيني الذي يشكل ركيزة أساسيّة من ركائز النّظام الاجتماعي والصّورة الكليّة للآخر "لقد كان المشهد الدّيني من الأمور المهمة التي نالتّ نصيبا كبيرًا من اهتمام الرّحالة في رصدهم الكثير من المشاهدات التي تكونت من خلالها الصّورة العامة للأخر، حيث تناول الرّحالة هذا الجانب أداء وممارسة وتفاعلا، إيمانا منهم بأهميّة هذا العامل في زرع نوازع البحث في الماهيّة الدّينيّة للآخر، وإماطة اللثام عن كثير من ممارساته العقديّة التي تمسّ صميم حياته وسلوكه"[23] وقد ارتسم المشهد الدّيني بالحديث عن أبرز الشّواهد والآثار الدّينيّة المتمثلة في المساجد وقبر النّبي وقبور الصّحابة فقد "شكلت المزارات الدّينيّة الإسلاميّة جزءا من المنظومة المكانيّة ذات الطّابع الدّيني فقد أشاروا إليها مرات كثيرة، وتحدثوا عنها ووصفوها حيثما وجدوها"[24]؛ وأوّل مكان ديني زاره الرّحالة أثناء وصوله للمدينة هو قبر الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، وكانت الرّوايّة الشّائعة في أوروبا أنّ قبر الرّسول (ص) معلق في الهواء، وكان فارتيما أوّل من كذب هذه الرّوايّة في مذكراته، كما تطرق إلى وصف المسجد النّبوي في ذلك الوقت يقول: "يبلغ طول مسجد النّبي (ص) مائة خطوة طولا وثمانين خطوة عرضا، ويوجد بابان من كل جهة من جهاته الثّلاث أمّا جهته الرّابعة فلا أبواب فيها، وسقفه مقوس وبه أكثر من

400 عمود من الأحجار الدّاكنة..، وبه حوالي 3000 مصباح من جانب واحد وعند رأس المسجد ناحيّة اليمين يوجد برج مربع يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه خمس خطوات وقد غطي بالحرير...، وعند أحد البابين يوجد حولي عشرين كتابا، وعند الجانب الآخر خمسة وعشرون كتابا وتتناول هذه الكتب حياة محمد (ص) ووصايا الدّين الإسلامي"، [13] كما أشار الرّحالة إلى قبور الصّحابة كقبر علي وأبا بكر وعمر وفاطمة وفي تعريفه بهم أراد فارتيما إسقاط ثقافته المسيحيّة على التّاريخ الإسلامي حين يصف أبو بكر الصّديق بأنّه كاردينال وأنّه كان يريد أن يكون بابا، وفي طريقه إلى مكّة يصف عدد النّوق والأحصنة التي يملكها العرب، كما يشير إلى أهميّة حليب النّوق في استرداد الحيويّة.

13-صورة مكة المكرمة من الجانب العمراني: قدم الرّحالة صورة ايجابيّة في وصفه لمكة المكرمة ذات الشّرف الباهر، يقول: **إنّها مدينة رائعة الجمال...، ففي وسط مكة يوجد معبد(مسجد) جميل جدا يشبه الكولوزيوم في روما إلاّ أنّه غير مبني بالحجارة الضّخام، وإنّما من طوب أحمر، وله تسعون بابا أو مائة باب...، وفي باحة مكشوفة في وسط المعبد يوجد برج (الكعبة المشرفة) تبلغ أطوال كل من أضلاعه الأربعة ست خطوات وقد غطي هذا المبنى بالحرير الأسود وبه باب من الفضة الخالصّة بارتفاع قامة الإنسان عن طريقه يمكن الدّخول لهذا البرج ويوجد على كلا جانبي هذا الباب جرة"** [25] فمن خلال حديث الرّحالة عن مكة نجد أنّه قدم لنا صورة ايجابيّة من خلال الوصف الخارجي للكعبة، لكنّها رؤيّة لا تخلو من المقارنة مع أماكن العبادة المسيحيّة الموجودة في ايطاليا، وإسقاط المفردات الغربيّة على المعالم الدّينيّة الإسلاميّة وتسميتها بمسميات مسيحيّة كالكنيسة، المعبد، الكاتدرائيّة البرج، لأنّه "لا مناص من أنّ تتأثر الصّورة بالمكونات الثّقافيّة والمزاجيّة لمنتجها، لأنّها تخضع عن وعي أو لا وعي لمنظور ثقافة الواصف" [26] كما

يحيلنا حديثه عن مكّة المكرمة إلى صورة كلها حركة تبعث في النّفس معاني الإيمان والحس المتماهي والاندماج مع إحداثياتها، وهنا تكمن دهشة فارتيما من الجو الذي تتخله السّكينة والعبادة.

14-صورة الرّجل العربي المتمرد: يخلص فارتيما في رحلته إلى توكيد صورة العربي المسلم للقارئ الأوروبي، حيث يرسم للرجل العربي صورة سلبيّة ذات بعد نمطي يقدّم فيها مواصفات العرب فيرى "أنّ أحجامهم صغيرة ولونهم أصفر داكن وأصواتهم كأصوات النّساء، وشعورهم تتميز بالكثافة والطّول وأعدادهم هائلة، ولا يكفون عن الاقتتال فيما بينهم، كما أنّ هؤلاء البدو يقطنون الجبل وعندما يحين موعد مرور القوافل المتجهة إلى مكة يقومون بالإغارة عليها ونهبها، أمّا خيامهم فتشبه خيام العسكر وهي مصنوعة من الصّوف الأسود ومنظرها كئيب"،[27] فصورة العربي عند الرّحالة هي صورة نمطيّة تعرضت إلى التّشويه، فقد صور الإنسان العربي القديم على أنّه بدائي ومتعصّب، وقد ربط صورته بالخيمة والصّحراء والقبليّة، كما أنّ الرّحالة لديه خلط في المفاهيم فهو يجمع على أنّ البدو كلّهم أشرار لكن هذا ينطبق على فئة معينة وهي فئة قطاع الطّرق. كما يصر في موضع آخر على قوة المماليك وعلى ضعف البدوي وعدم قدرته في استخدام السّلاح فيقول" كان يتحتم علينا دائما أن نخوض معركة مع أعداد كبيرة من العرب(البدوي) ولكنهم لم يقتلوا منا أكثر من رجل وامرأة، فهم رغم كثرتهم إلاّ أنّ انحطاط عقولهم جعلنا مع أنّنا لا نزيد على ستين مملوكا قادرين على مقاومة أربعين ألف بدوي فهؤلاء الوثنيون لا يجيدون استخدام السّلاح كالمماليك"،[28] فالرّحالة يزعم أنّ المماليك لهم الفضل في حمايّة القافلة وكأنّ العرب لا يجيدون الدّفاع عن أنفسهم، وهذه الصّورة التي نقلها الرّحالة تميزت بقصور نابع وناتج عن الرّؤيّة المقيدة التي تظل عاجزة عن الانعتاق والتّخلص من قيود الغرب الذي يقسم الحضارات إلى الغرب المتفوق والمتحكم والشّرق الرّاضخ والمستسلم.

15-خاتمة: نستنتج ممّا سبق أنّ صورة بلاد العرب الصّحراويّة في رحلات فارتيما قد سلطت الكثير من الأضواء الكاشفة على بعض مظاهر هذا المجتمع الاجتماعيّة، الثّقافيّة، العمرانيّة، السّياسيّة والدّينيّة، لكن رغم هذا نجد بعض المشاهد التي بالغ الرّحالة في نقلها ووصفها، وقد كذب المؤرخ **روبين بيدويل** بعض مشاهدات فارتيما "واعتبرها من نسج خيال دي فارتيما، واعتبرها من جملة الادعاءات التي ضمنها كثير من الرّحالة يومياتهم متأثرين بحكايات وأساطير ألف ليلة وليلة التي مثلت في خيال الأوربيين نموذجا لحياة الشّرق بكل ما فيها من سحر وغموض"،[29].

أنّ الرّحلة التي قام بها فارتيما إلى البلاد العربيّة كان هدفها بالدّرجة الأولى خدمة مخطط استعماري من خلال وضع تقارير جغرافيّة وإداريّة وسياسيّة واقتصاديّة عنها، وإرسالها إلى ملك البرتغال ويظهر هذا من المشاهد التي اختلطت فيها المعرفة الدّقيقة للعنصر الإنساني وللطبيعة ومتغيراتها، والتّحديد الدّقيق للمواقع الجغرافيّة.

تجلت الصّورة السّلبيّة للآخر العربي في رحلات فارتيما التي كانت منبثقة عن نظرة استعلائيّة انطلاقا من العرف والدّين لإشباع غايته التي تضمر الرّغبة في التّمركز، وهي صورة نمطيّة دونيّة مدنسة في اللاوعي الجمعي الأوروبي المتعصب للعرق والجنس الأبيض.

16. قائمة المراجع:

1-بلال سالم الهروط، صورة الآخر في الرّحلات الأندلسيّة، إشراف: فايز القيسي رسالة مقدمة إلى عمادة الدّراسات العليا استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدّكتوراه جامعة مؤتة، 2008،

2- بوشعيب السّاوري، الرّحلة والنّسق دراسة في إنتاج النّص الرّحلي مؤسسة الرّحاب الحديثة للطباعة والنّشر والتّوزيع،بيروت، لبنان.

3- شحاتة عبد المنعم. الأنا والآخر. سيكولوجيّة العلاقات المتبادلة. ط1 أيتراك للنشر والتّوزيع، القاهرة، 2001.

4- عرفة عبده علي، أوربيون في الحرمين الشّريفين، عالم الكتب.

5- عمار محمد النّهار. الرّحلات الحديثة المتبادلة بين الشّرق والغرب. مجلة دوائر الإبداع. العدد الثّالثّ. 2015. جامعة دمشق.

6- عمر بن قينة. في الأدب الجزائري الحديث تاريخا وقضايا، أنواعا وأعلاما. دط. ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر 1995.

7- فارتيما، رحلات فارتيما(الحاج يونس المصري). تر: عبد الرّحمن عبد الله الشّيخ. الهيئة العامة لمكتبة الإسكندريّة، دط، 1994.

8- فؤاد عبد الرّحمن الشّوابكة. أدب الرّحلة الأندلسيّة والمغربيّة حتى نهايّة القرن التّاسع الهجري.ط1.دار المأمون للنشر والتّوزيع، عمان، 2008.

9- محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التّوحيديّة،دار السّاقي، بيرت، ط1، 2010.

10- محمد بن حسن بن عقيل موسى الشّريف. المختار من الرّحلات الحجازيّة المجلد الأوّل. دار الأندلس الخضراء، ط2009،1

11- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، ط 5، دار العودة ودار الثّقافة.

12- يوسف بكار، خليل الشّيخ. الأدب المقارن. القاهرة الشّركة العربيّة المتحدة للتسويق والتّوريدات بالتّعاون مع جامعة القدس المفتوحة، 2008

13-Simon jeune, littérature gènèral et littérature comparèe,essai d'orientation, lettre modernes, 1968.

8. هوامش:

(1)–عمر بن قينة، في الأدب الجزائري الحديث تاريخا وقضايا، أنواعا وأعلاما، دط ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر 1995، ص 97.

(2)–فؤاد عبد الرّحمن الشّوابكة، أدب الرّحلة الأندلسيّة والمغربيّة حتى نهايّة القرن التّاسع الهجري، ط1.دار المأمون للنشر والتّوزيع، عمان، 2008، ص 244.

3 –Simon jeune, littérature gènèral et littérature comparèe,essai d'orientation, lettre modernes, 1968,p49.

(4)–شحاتة عبد المنعم، الآنا والآخر. سيكولوجيّة العلاقات المتبادلة، ط1، أيتراك للنشر والتّوزيع، القاهرة، 2001، ص 40.

(5)–يوسف بكار، خليل الشّيخ. الأدب المقارن. القاهرة الشّركة العربيّة المتحدة للتسويق والتّوريدات بالتّعاون مع جامعة القدس المفتوحة، 2008، ص 210.

(6)–عمار محمد النّهار، الرّحلات الحديثة المتبادلة بين الشّرق والغرب، مجلة دوائر الإبداع، العدد الثّالثّ، 2015. جامعة دمشق، ص 187.

(7)–محمد بن حسن بن عقيل موسى الشّريف، المختار من الرّحلات الحجازيّة مجلد الأول، دار الأندلس الخضراء، ط1، 2000، ص253.

(8)–عرفة عبده علي، أوربيون في الحرمين الشّريفين، عالم الكتب، ص30.

(9)–عمار محمد النّهار، الرّحلات الحديثة المتبادلة بين الشّرق والغرب، مجلة دوائر الإبداع، العدد الثّالثّ،2015. جامعة دمشق، ص 186.

(10)–المرجع نفسه، ص 186 .

(11)–فارتيما، رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري). تر: عبد الرّحمن عبد الله الشّيخ. الهيئة العامة لمكتبة الإسكندريّة، دط، 1994، ص23.

(12)–المصدر نفسه، ص 25.

(13)–المصدر نفسه، ص 26.

(14)–محمد أركون، نحو تاريخ مقارن للأديان التّوحيديّة، دار السّاقي، بيرت، ط1 2010.، ص329.

(15)–المصدر نفسه، ص26.

(16)–فارتيما، رحلات فارتيما(الحاج يونس المصري)، تر: عبد الرّحمن عبد الله الشّيخ. الهيئة العامة لمكتبة الإسكندريّة، دط، 1994، ص 29.

(17)–المصدر السّابق، ص:28،29.

(18)–المصدر السّابق، ص 31.

(19)–فارتيما، رحلات فارتيما(الحاج يونس المصري). تر: عبد الرّحمن عبد الله الشّيخ. الهيئة العامة لمكتبة الإسكندريّة، دط، 1994، ص 31.

(20)–المصدر نفسه، ص 30.

(21)–فارتيما، رحلات فارتيما ، ص30.

(22)– المصدر نفسه، ص 42.

(23)– المصدر السّابق، ص42.

(24)–بلال سالم الهروط، صورة الآخر في الرّحلات الأندلسيّة، إشراف: فايز القيسي رسالة مقدمة إلى عمادة الدّراسات العليا استكمالا لمتطلبات الحصول على درجة الدّكتوراه جامعة مؤتة، 2008، ص65.

(25)–فارتيما، المصدر نفسه، ص53،54.

(26)–بوشعيب السّاوري، الرّحلة والنّسق دراسة في إنتاج النّص الرّحلي، مؤسّسة الرّحاب الحديثة للطباعة والنّشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 160.

(27)–فارتيما، رحلات فارتيما(الحاج يونس المصري). 1994، ص 50

(28)–المصدر نفسه، ص 51

(29)–عرفة عبده علي، أوربيون في الحرمين الشّريفين، عالم الكتب، ص41.